قراءة في مسالك التغيير عند ابن تومرت

A reading of the paths of change according to Ibn Tumart

إسماعيل بن عبد الله♦

مخبر الدراسات الحضارية والفكرية تلمسان، جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان

ismailbenabdelmadjid@gmail.com

تاريخ الإرسال: 18/ 09/ 2023 تاريخ القبول: 2023/12/07 تاريخ النشر: 2024/01/31

الملخص باللغة العربية: تناولت هذه الدراسة مسالك التغيير عند ابن تومرت، بداية من أنواع الدعاية التي استعملها لنشر دعوته وآراءه، قوله بعصمته وبأنه المهدي المنتظر وما يتبع ذلك من النسب الشريف، ثم استعانته بالعنصر البشري لتشكيل عدة تنظيمات سياسية، وما تبع ذلك من انتقاد للمرابطين عقيدة وفقها وسلوكا، لتأتي بعد ذلك محاربتهم عسكريا. من خلال هذه المسالك سيتم الكشف عن مقصد وهدف ابن تومرت من التغيير.

الكلمات المفتاحية: ابن تومرت؛ التغيير؛ المرابطين؛ المغرب؛ الإسلامي

Abstract: This study deals with the paths of change according to Ibn Tumart, starting with the types of propaganda that he used to spread his call and opinions, his statement of his infallibility and that he is the Awaited Mahdi and the honorable lineage that follows from that, then his use of the human element to form several political organizations and what followed from criticizing the Almoravids doctrine, jurisprudence, and behaviour, and then fighting them militarily. Through these paths, Ibn Tumart's purpose and goal for change are revealed.

Keywords: Ibn Tumart; Change; Almoravids; Maghreb; Islamic

مقدمة:

اختلف كتّاب التاريخ في الحركة التومرتية أكانت دعوة دينية إصلاحية، أم حركة سياسية، أم آلة قتل حربية، أم أنها جمعت كل هذه العناصر المذكورة أو بعضها. ويرجع

♦ المؤلف المرسل

سبب اختلافهم بالنظر لاستنباطهم الحاصل من خلال طرق التغيير التي سلكها ابن تومرت. فبالنظر إلى العقائد والأحكام التي أتى بها هذا الأخير ودعمها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذهبت مجموعة منهم مذهب الإصلاح. ومن تأمل أعماله وتنظيماته السياسية قال بأنها حركة سياسية، أما من نظر إلى الجانب العسكري وسفك الدماء جنح إلى تصنيفها بأنها آلة قتل لا غير.

لا شك أن ابن تومرت كان له هدف مسطّر ومقصود من التغيير، وهو ما سنحاول الوصول إليه من خلال طرح الإشكالية التالية: إلى ماذا كان يهدف ابن تومرت من خلال مسالك التغيير التي قطعها ؟

لكي نجيب عن هذا التساؤل تطرقت في هذه الدراسة إلى كل مسلك من مسالك التغيير عنده على حدة في حوالي تسعة مباحث حتى نستخلص منها ما يوصلنا إلى الجواب عن الإشكالية المطروحة آنفا.

وعليه جاءت خطة الدراسة على النحو التالي:

بدأت في أول الأمر -بعد المقدمة- بالكلام عن أنواع الدعاية التي استعملها ابن تومرت.

وبعدها تحدثت عن كيفية وصوله إلى القول بعصمته وبأنه المهدي المنتظر.

ثم أعقبت ذلك بالحديث عن رفعه نسبه إلى آل بيت النبوة، وهو عنصر له علاقة بالمبحث السابق.

ثم بسطت القول -في ثلاث مباحث مرتبطة ببعضها البعض- عن: أنواع التشويهات التي لوّث بها ابن تومرت المرابطين، تشويه العقائد، وتشويه الفقه أو الأحكام، ثم تشويه سمعتهم.

بعد ذلك، تطرقت إلى التنظيم السياسي الذي لجأ إليه ابن تومرت كي يقوي به دعوته وآراءه.

وفي آخر مبحثين تناولت عنصر الجانب العسكري لمحاربة المرابطين والقبائل المخالفة، وهو ما له صلة أيضا بمبحث سفك الدماء التي خاض فيها ابن تومرت.

ثم أوردت أخيرا خاتمة فيها أهم النتائج المتوصل إليها مع الجواب عن الإشكالية.

يهدف البحث إلى محاولة إعطاء قراءة تاريخية نقدية في مقابل الآراء التي تباينت في قضية مقصد ابن تومرت من التغيير الذي سلكه.

وحاولت خلال هذه الدراسة أن أسلك المنهج التاريخي مغلّبا أداتي التحليل والنقد على جانب السرد نظرا لأهميتهما في مثل هذه الدراسات.

1- مسلك الدعاية:

بمجرد تولي ابن تومرت عن بلاد المشرق بدأ يُظهر أمورا تسترعي انتباه العامة فضلا عن الولاة والحكام، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن دون شك فإنه كان يرمي إلى هدفٍ من وراء ذلك. كان ابن تومرت إذا مرّ به منكر غيّره وأزاله[1]. وقد بدأ أوَّلاً بالإنكار بمكة، فآذوه[2]. ثم خرج منها، وقدم بلاد مصر، فأنكر أمورا بالإسكندرية، أفضت إلى أن نفاه والي الإسكندرية عن البلاد[3]، ولما ركب السفينة ببحرها استمر على عادته وغيّر المنكر وهو على المركب، وألزم من به بإقامة الصلاة، وقراءة القرآن[4]، إلى أن ألقاه أصحاب السفينة في البحر[5].

لم يُفصح ابن تومرت من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن مقصده بمكة وبلاد مصر سوى أنه كان يريد تطبيق الشريعة بزعمه كما جاء بها القرآن والسنة، لكن لما حلّ بطرابلس الغرب بدأ بإعلان آراءه وتعليمها لمن التقى به مُظهرا النكير على علماء المغرب في عدولهم عنها[6]، ولما وصل إلى المهدية بات ابن تومرت أكثر جرأة من ذي قبل، ودعا إلى مذهبه الفكري صراحة[7]، كما أنه طلب ممن تأثر بفكره بناءَ مكانٍ للعبادة

1 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، ج 8، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1417هـ/1997م، ص 655.

2 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد زغلول، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 421.

3 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح: صلاح الدين الهواري، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ/2006م، ص 137.

4 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 654.

5 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 137.

6 - ابن خلدون (ت 808هـ)، العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، ج 6، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1401هـ/1981م، ص 302.

7 - هو تقديم العقل على ظاهر النص.

وتدريس علومه وبث أفكاره، غير أنهم مُنعوا وضُيّق على ابن تومرت فاضطر إلى الخروج من المهدية[8] إلى قسنطينة ثم بجاية[9].

وببجاية أنكر ابن تومرت شرب الخمور وجعل يكسر الأواني المستعملة في ذلك[10]، فأُخرج عنها وتوجه إلى ملّالة[11]، فأقام بها مدّة، وهناك التقى بعبد المؤمن بن علي، فتعرّف عليه، ودار بينهما حوار مفاده أن عبد المؤمن كان يريد الرحلة نحو المشرق للإستزادة من العلم، فطلب منه ابن تومرت البقاء معه فيصحبه ويعينه على ما هو بصدده، فيناله بزعمه شرف الدنيا والآخرة[12]. ويبدو من خلال هذا الحوار أن النواة الأولى لمشروع الدولة الموحدية المشتركة بين ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي انطلقت من هنا بملّالة، بدليل أن ابن تومرت عيّن صاحبه منذ هذه اللحظة سراج الموحدين[13]، بعد أن علم عبد المؤمن بمراده وما قصد إليه من طلب الملك، فوافقه وتبعه على أمره، وبايعه من هنا على مؤازرته في الرخاء والشدة[14].

بقي ابن تومرت يعمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سنة كاملة لا يُظهر ما له علاقة بطلب الملك. قال المراكشي في هذا الصدّد:" ...اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير، من غير أن يظهر إمرة ولا طِلْبة مُلك. وألف لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان. فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته. فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة..."[15].

---

8 - ابن القلانسي (ت 555هـ)، تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، ط 1، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1403هـ/1983م، ص 453.

9 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي ابن تومرت، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971، ص 12-13.

10 - نفسه، ص 13-14؛ ابن القلانسي (ت 555هـ)، المصدر السابق، ص 453.

11 - بالفتح ثم التشديد: قرية قرب بجاية على ساحل بحر المغرب. ياقوت الحموي (ت 626هـ)، معجم البلدان، ج 5، ط 2، دار صادر، بيروت، 1995، ص 189.

12 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 137.

13 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المصدر السابق، ص 16-17.

14 - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1972، ص 173.

15 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 140.

لم يتقيد ابن تومرت بما هو معروف وشائع عند الناس فضلا عن العلماء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له درجات ومراتب، وأن منه ما هو من اختصاص الولاة وأعوان الحاكم لا عامة الناس وهو منهم، حيث نلاحظ لجوءه غالبا إلى التشديد والإلزام والتغيير باليد -مع أنه لم يكن صاحب سلطة- بدل اتباع طريقة التغيير باللسان كالنصيحة والإرشاد في مواضعها، أو عن طريق التغيير بالقلب في مواضعه أيضا. ومن الحيل التي ابتكرها في سبيل المحافظة على حياته إذا ما تعرّض -عند تغيير المنكر- إلى الأذى أو خاف من بطش الحكام أنه كان يخلّط في كلامه ويتظاهر بالجنون حتى يُنسب إليه[16]. وقد علم مراده بعض وزراء المرابطين المتمثل في شخص مالك بن وهيب قاضي مراكش الذي ناظره فغلبه وقهره، ونصح علي بن يوسف المرابطي بقتله أو حبسه على الأقل، مشيرا عليه أن ابن تومرت لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يريد الوصول إلى السلطة والإفساد في الأرض وقتل النفوس، وأنه إذا أثار شرا فلا يمكن تداركه"[17].

من خلال ما سبق، يمكن القول أن ابن تومرت كان له هدف مغاير لما أظهره في أول أمره، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الدعوة إلى هذا المذهب العقائدي الدخيل على المغرب المشار إليه سابقا لم يكونا إلا وسيلة وجسرا للوصول إلى السلطة، أراد من خلالهما لفت الأنظار في بلاد المغرب وغيره كي يُحسب على فئة المصلحين ويتعاطف معه الناس ويكثر أتباعه حتى ولو كانوا بعيدين عنه من حيث المسافة. وكذلك تكوين دعاة سريّين يدعون إلى أفكاره ومبادئه. وقد نجح ابن تومرت في ذلك إلى حدّ كبير، حيث يذكر البيذق أنه كان له بمصر واحد وخمسون رجلا "كانوا له مثل أعضائه وجسده، سامعين لقوله، مجيبين لأمره، مؤمنين به، مختارين صحبته، مؤثرين لحقه، معظمين لحرمته لما تبين حالهم بذلك اختار لهم الاقامة هناك"[18].

إضافة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان ابن تومرت يكثر التزهد والتقشف، ويظهر التشبه بالصالحين، والتشدد في إقامة الحدود[19]، حتى يُعظَّم عند

16 - ابن خلكان (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ج 5، ط 1، دار صادر، بيروت، 1994، ص 46.

17 - ابن القلانسي (ت 555هـ)، المصدر السابق، ص 453. وهذا رد من بين الردود على المصادر الموحدية ومن قلدها بأن ابن تومرت هو من كان المتغلب في المناظرة على كل فقهاء المرابطين بحضرة السلطان.

18 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971، ص 28.

19 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 144.

أصحابه مع ما كان يخبر به من وقوع أمر من الأمور حسب ما تعلّمه من الجفر، بل إنه كان يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام[20]. وعندما يقع ذلك الأمر يزداد الناس افتتانا به. وقد أورد المراكشي قصة في ذلك فقال:" ولقد أخبرني بعض من شهده وقد أُتي برجل سكران، فأمر بحدّه، فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان: لو شدّدنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها...! فأعرض عنه. ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه. فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتها في دار يوسف بن سليمان، ما نحن صانعون؟ فاستحيى الرجل وسكت، ثم كشف على الأمر، فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا، إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر"[21].

صحب ابن تومرت في هذه الدعاية رجلا يسمى عبد الله الونشريسي، ففاوضه ابن تومرت فيما عزم عليه من أمره، فوافقه على ذلك، واتفقا على أن يتظاهر الونشريسي بالبله والجهل وعدم المعرفة أمام الناس، بينما يشتغل في السر بحفظ القرآن وطلب العلم دون علم أحد. فكان الونشريسي يُظهر ما ذكرناه وبزاقه ينزل على صدره، كأنه معتوه، ومع هذا فابن تومرت يقربه، ويكرمه، ويقول: إن لله سرا في هذا الرجل سوف يظهر.

فلما كانت سنة 519هـ/1125م جاء وقت التمييز بين الأتباع المسمى يوم الفرقان، وسببه أن ابن تومرت خاف تولي أو غدر بعض القبائل، فابتكر حيلة مع الونشريسي للإبقاء على المخلصين من أتباعه. وقد أوردت عدة مصادر هذه الحادثة بين الطول والإيجاز نحاول أن نذكرها بشيء من الإختصار. خرج ابن تومرت في ذلك اليوم لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانا حسن الثياب، طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريسي! فقال له ابن تومرت: إن أمرك لعجب! ثم صلى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروه، وتحققوا أمره، فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له ابن تومرت: ما قصتك؟ قال: إنني أتاني الليلة ملك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني الله القرآن، والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى ابن تومرت بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك، فقال: افعل.

20 - لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ، ص 57.

21 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 145.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فتعجب الناس من حاله وحفظه القرآن، فقال له ابن تومرت: عجل لنا البشرى في أنفسنا، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء، فقال له: أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله، ومن تبعك سعد، ومن خالفك هلك؛ ثم قال: اعرض أصحابك علي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، فإن الله تعالى قد أعطاني نورا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي.

فسار ابن تومرت والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصلى ابن تومرت عند رأسها، ثم قال: يا ملائكة الله، إن أبا عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت، فقال من بها: صدق! وكان قد وضع فيها رجالا يشهدون بذلك، فلما قيل ذلك من البئر، قال ابن تومرت: إن هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تطمّ لئلا يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز. فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها، وبذلك قتل من بها ممن طلب منهم ابن تومرت الشهادة. ثم نادى في القبائل الموالية له بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريسي يأتي إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار، فيلقى من الجبل مقتولا، وإلى الشاب الغر، ومن لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة، فيترك على يمينه. ومن غرابة الونشريسي أنه كان يعفو عمن يصنف في عداد الخصوم، مبررا ذلك بأن هؤلاء أعلنوا توبتهم وأنهم أوفياء للدعوة الموحدية[22]. وكان إذا اجتمع كثير من الناس من نفس القبيلة قتلهم أقرباءهم، يقتل الأب ابنه، والأخ أخاه، وابن العم ابن العم، فلما قتل من قتل وعلم ابن تومرت أن في الباقين من له أهل وأقارب قتلوا وأنهم لا تطيب قلوبهم بذلك فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم،

22 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص 39؛ ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 146-148.

واغتنام أموالهم، فسرهم ذلك وسلاّهم عن أهلهم[23]. وقد قُتل في هذه الحادثة خمس قبائل من الناس[24]، يقال بأن عددهم وصل إلى سبعين ألفا[25].

وهكذا نرى أن ابن تومرت استجاز إحداث أنواع من الأمور الخارقة ليدعو أتباعه إلى نفسه ويؤثر فيهم، بإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة، وبتكليم الموتى وردهم عليه تارة، والتظاهر بالزهد والورع وإظهار التشبه بالصالحين تارة أخرى، ووقوع بعض الأمور التي أخبر عنها غيبيا ومسبقا أنها ستقع، إضافة إلى حادثة الونشريسي في التمييز بما سمّي يوم الفرقان. يقول الذهبي معبرا عن هذه العناصر المذكورة:" وكان يسمي أتباعه المؤمنين، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة بالغرب ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله"[26]، وأنتم الذين يفتح الله بكم الروم، ويقتل بكم الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، هذا مع جزيئات كان يخبرهم بها وقع أكثرها، وكان يقول: لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفةً خليفةً لعددت، فعظمت فتنة القوم به، وبالغوا في طاعته، إلى أن بلغوا حدًا لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لقتله، وسهل ذلك عليهم ما في طباعهم من القسوة المعهودة في أهل الجبال، لا سيما المغاربة البربر، فإنهم جُبلوا على الإقدام على الدماء"[27].

ومن إقدامه على الدماء في سبيل الدعاية إلى نفسه، أنه بعد إحدى المعارك بين الموحدين والمرابطين، والتي قُتل فيها من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على

---

23 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 657-658؛ ابن خلكان (ت 681هـ)، المصدر السابق، ج 5، ص ص 48-53؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عواد معروف، ج 11، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ/2003م، ص 411-412.

24 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص ص 37، 39؛ ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص ص 146-148.

25 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 657-658؛ ابن خلكان (ت 681هـ)، المصدر السابق، ج 5، ص ص 48-53؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 411-412.

26 - لم أجده بهذا اللفظ، ووجدته بلفظ مشابه. رواه أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (ت 316هـ)، المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم، تح: مجموعة، ج 15، ط 1، الجامعة الإسلامية، السعودية، 1435هـ/2014م، ص 474.

27 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 414-415.

عشائرهم، احتال ابن تومرت بأن انتخب قوما من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة، وجعل لكل واحد منهم متنفسا في قبره، وقال لهم: إذا سئلتم عن حالكم فقولوا: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، وأن ما دعا إليه الإمام المهدي هو الحق، فجِدّوا في جهاد عدوكم، وقال لهم: إذا فعلتم ذلك أخرجتكم، وكانت لكم عندي المنزلة العالية، وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته، ويهون عليهم ما لاقوا من القتل والجراحات بسببه، ثم جمع أصحابه عند السحَر، وقال لهم: أنتم يا معشر الموحدين حزب الله، وأنصار دينه، وأعوان الحق، فجدوا في قتال عدوكم، فإنكم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة، وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله. ثم أتى بهم إلى موضع المعركة، ونادى: يا معشر الشهداء، ماذا لقيتم من الله عز وجل؟ فقالوا: قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فافتتن الناس وظنوا أن الموتى قد كلموهم، وحكوا ذلك لبقية إخوانهم، فازدادوا بصيرة في أمره، وثباتا على رأيه، ثم أمر ابن تومرت بعد ذلك بإغلاق تلك المنافس التي كان قد تركها لهم، فماتوا من ساعتهم[28].

ومن الدعاية التي سلكها ابن تومرت قصد الوصول إلى سدّة الحكم أنه قطع الدعوة عن خلفاء بني العباس[29] ليأمر بها فيما بعد لنفسه بأنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم - كما سيأتي لاحقا-، كما أنه ألف لأتباعه كتاب "أعز ما يطلب" حيث يعتبر وصية ابن تومرت العقدية والسياسية، ويمكننا أن نعتبر ما ورد فيه من تعاليم ومبادئ خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية، أساس الدولة الموحدية الروحي والسياسي[30]. وقد عظمه أتباعه ظاهرا وباطنا حتى كانوا يستغيثون به في شدائدهم وينوّهون باسمه على منابرهم[31].

يلاحظ من خلال هذا المسلك أن دعوة ابن تومرت يشوبها كثير من الغبش والانحراف، فهو لم يجرؤ في بادئ الأمر على إظهار هدفه للناس صراحة، ولهذا تنوعت الدعاية منه إلى نفسه، فانتحل صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذا خشي بطشاً

28 - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 182-183.

29 - ابن الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تح: صلاح الدين المنجد، ج 6، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1380هـ/1961م، ص 331 وص 445.

30 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، دولة الإسلام في الأندلس، ج 3، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1411هـ/1990م، ص 216.

31 - الناصري السلاوي (ت 1315هـ)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج 2، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص 92.

خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون، وأوهم أتباعه أنه يكلم الموتى ويعلم الغيب ويوحى إليه، وتظاهر بالزهد والورع وأظهر التشبه بالصالحين، وقتل أصحابه من أجل إظهار كراماته. ولن يكتفي ابن تومرت بهذه الأمور، بل سيضيف إلى ذلك أشياء أخرى.

2- ادعاء المهدية[32] والعصمة:

يبدو من خلال المصادر أن ابن تومرت أرجأ الدعوة إلى نفسه بأنه المهدي المنتظر إلى غاية تمكنه من استمالة قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة بعد أن وفدوا إليه على جبل في إقليم السوس[33] وتابعوه على دعوته ومبادئه، ومنها إنكاره على المرابطين المستلزم عنده مجانبة طاعتهم، بل إنه كان يرى وجوب قتالهم. فأقام على هذا مدة سنة كاملة بداية من سنة 514هـ/1120م. ولما رأى من أتباعه السمع والطاعة أعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم بشّر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلا، وأن مكانه الذي يخرج منه هو المغرب الأقصى، فقام إليه عشرة رجال، أحدهم عبد المؤمن، فقالوا: "لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي"، فبايعوه على ذلك، فبشرهم بالنصر على المرابطين واستئصال دولتهم[34]. وعلى هذا أكثر المصادر.

غير أنه عند المقارنة ببعض المصادر الموحدية نرى أن ابن تومرت تلقب بالمهدي قبل التاريخ المذكور سابقا، حيث وقف ابن القطان على نسخة صكٍ كتبها ابن تومرت بيده ينسب فيها هذا اللقب لنفسه، وذلك عندما قال فيه بعد البسملة والصلاة: "أقول وأنا محمد بن عبد الله تومرت وأنا مهدي آخر الزمان". وتاريخ هذا الصك كان آخر شهر رمضان عام 511هـ/1117م[35]. وهذا يعني أنه تلقب بالمهدي قبل أن يبايَع. وقد شكك البعض في ادعاء ابن تومرت أنه مهدي آخر الزمان بدعوى أن هذا اللقب ملفق له، وأنه لم

32 - ويُطلق عليها البعض اسم: "المهدوية". والمهدي رجل بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجيء في آخر الزمان، ويؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية، ويكون من أهل بيته صلى الله عليه وسلم، ويخرج في زمنه عيسى عليه السلام، والدجال. عبد الله بن سليمان الغفيلي، أشراط الساعة، ط 1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1422هـ، ص 78. ويسمى المهدي لأن الله هداه إلى الحق فاهتدى، ويُصلِحه فيُصلِح به. وتقوم عقيدة المهدية كما عُرفت في العالم الإسلامي على الإيمان بهذا الرجل المنتظر.

33 - هو جبل إيكَلي أو إيجلي منطلق دعوة ابن تومرت كما سيأتي.

34 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 655-656.

35 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 89.

يصرح به هو لنفسه أو بدأ به في مكاتباته ورسائله. والحق أن ذلك ثابت عنه، ونسخة الصك هذه ترد ذلك التشكيك.

وبشأن تضارب تاريخ نسخة الصك المؤرَخ في 511هـ مع تاريخ 515هـ، وهو العام الذي بويع فيه بأنه المهدي[36]، فيمكن توجيه ذلك بأن ابن تومرت كان يبث هذا اللقب بين الأعيان والشخصيات المخلصة له سرا منذ بداية دعوته بالمغرب، لكنه تحفظ عن إظهاره أمام العامة إلى غاية تأكده من إيمانهم بدعوته ووقوفهم بجنبه ضد المرابطين، وهي السنة التي اشتهر فيها أمره، أي 515هـ[37]. أو يمكن أنه قد بويع مرتين أو أكثر.

ولا يُستبعد أن يكون ابن تومرت قد أطلق هذا اللقب لنفسه منذ أن التقى بعبد المؤمن بن علي بملالة عندما أخبره بمشروعه وطلب منه الإعانة عليه، ومن المرجّح أن ذلك كان مع نهاية 511هـ أو بداية سنة 512هـ على الأكثر.

أما عن كيفية مبايعته فقد جعل ابن تومرت يذكر المهدي -في الموضع السابق- ويشوّق إليه. فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه وصفته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم. وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله[38].

ومن الدعاية التي عملها في سبيل ذلك أنه أخفى رجالا في قبور دوارس بعد تلقينهم ما يقولون، وجعل لهم في قبورهم فتحات للتنفس، فكان هو يصيح بينما هم بالقبور يسمعون: أيها الموتى أجيبوا، فأجابوه: أنت المهدي المعصوم، وأنت الذي تملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما. ومن اتبعك أفلح ومن خالفك خسر، لكنه خاف من

36 - هذا هو التاريخ الأرجح في سنة بيعة ابن تومرت. وقد أورد ابن القطان ثلاثة تواريخ للبيعة 514هـ، 515هـ، 516هـ. ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، نفس المصدر، الصفحات 87، 123.

37 - سبط ابن الجوزي (ت 654هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: مجموعة، ج 20، ط 1، دار الرسالة العالمية، دمشق، 1434هـ/2013م، ص 18؛ ابن العماد الحنبلي (ت 1089)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، ج 6، ط 1، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ/1986م، ص 119.

38 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 140-141.

انتشار هذه الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا[39]. كما أنه أوهم في حادثة أخرى تابعيه أن ملائكةً في بئرٍ سماه لهم تشهدُ له بذلك، وكان قد أرصد فيه رجالا من قبل، فلما حضروا البئر وسألهم ابن تومرت والناس يسمعون شهدوا له بذلك، فأمر مباشرة بعد الحادثة بهدم البئر عليهم، فماتوا عن آخرهم[40].

ثم رُدد لاحقا هذا اللقب في الخطب، وضُرب في السكك، بل كانت تلك الكلمة عندهم ثالثة الشهادتين، فمن لم يكن يؤمن بها، أو شك فيها، فهو كافر كسائر الكفار على حدّ نقل الشاطبي[41]. ولما تمكن أصحابه من السلطة بعده رددوا في خطبة الجمعة ما بايعوه عليه فكانوا يقولون: "الإمام المعصوم والمهدي المعلوم"[42].

من خلال الألقاب والشعارات المذكورة آنفا خاصة الأخيرة، نلحظ أن ابن تومرت لم يكتف بلقب المهدي فقط بل أضاف إليه لقبا آخر، وهو أنه الإمام المعصوم[43]. ومن المعلوم في آخر الزمان أن المهدي المنتظر سيملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجورا[44]، ويكون منزها عن اقتراف الظلم والآثام. فكان لابد من استخدام كلا اللقبين من طرف ابن تومرت لتلازم صفتي المهدية والعصمة في أصل المعتقد، حتى ينجح في إقناع الناس باتِّباعه وتصديقهم إياه.

39 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح: مجموعة، ج 19، ط 3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/1985م، ص 551.

40 - ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت 774)، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 16، ط 1، دار هجر، مصر، 1418هـ/1997م، ص 246-247.

41 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، الإعتصام، تح: مجموعة، ج 2، ط 1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/2008م، ص 86-87.

42 - ابن تيمية (ت 728هـ)، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تح: محمد رشاد سالم، ج 6، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1406هـ/1986م، ص 189.

43 - الإمامة باختصار معناها اعتقاد العصمة فيه، وهي بهذا المعنى من معتقدات الرافضة الإمامية. والظاهر أن ابن تومرت أخذها منهم لأنها ستخدم دعوته.

44 - جزء من حديث رواه أبو داود السجستاني (ت 275هـ)، سنن أبي داود، تح: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي، ج 6، ط 1، دار الرسالة العالمية، 1430هـ/2009م، ص 337.

لم يكن أصحاب ابن تومرت ليرددوا هذا اللقب خلال الخطب إلا لأنهم أخذوه عنه وآمنوا به. ومن شدة إيمانهم به أنهم كفّروا وقتلوا عددا ممن أنكر عصمة ابن تومرت[45]. ومن المعلوم أن العقيدة المصاحبة لمصطلح "الإمام المعصوم" استقاها ابن تومرت من عند فرقة الإمامية الإثنا عشرية التي تقول بعصمة اثنا عشر إماما، غير أنه لدهائه ومعرفته بعلم الحديث نسب نفسه للحسن بن علي رضي الله عنهما دون الحسين رضي الله عنه مع أن الرافضة يفضلون الحسين بن علي رضي الله عنهما[46]، وذلك حتى لا يُكتشف أمره، فيُنسَب إليهم. يقول عبد الواحد المراكشي في هذا الصدد: "وكان يبطن شيئًا من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء"[47]. ويقول ابن خلدون: "وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الّذي افتتحه بقوله: "أعزّ ما يطلب"، وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك الكتاب"[48].

وقد ارتكب ابن تومرت عدة مجازر -كما مرّ سابقا وسيأتي- تدل على بعده تماما عن دعوى المهدي المعصوم عن اقتراف الآثام والخطايا. بل إنه لم يكتف بادعاء أنه مهدي معصوم، وإنما ذهب إلى القول بنسبه إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

3- النسب إلى آل البيت:

لا شك أن ابن تومرت قد رفع نسبه إلى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نقلت ذلك مصادر كثيرة وإن كان الاختلاف واقعا بينها في مسألة إثبات صحة هذا النسب من عدمه. ومن المعلوم أيضا أن الذين أثبتوا نسب ابن تومرت تنازعوا في أسماء سلسلة هذا النسب.

ولا بأس أن نورد ملخصا يوضح هذه العناصر المذكورة، فممن أثبت نسبه إلى آل البيت تلميذه البيذق[49]، وتردد المؤرخ عبد الواحد المراكشي فتارة يثبت النسب[50]، ومرة يقول أن ابن تومرت دعيٌّ فيه[51]، وابن القطان[52]، وابن خلدون[53]، ولسان

45 - ابن تيمية (ت 728هـ)، منهاج السنة...، المصدر السابق، ج 6، ص 189؛ الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 84. وسيأتي لاحقا ذكر حادثة قتل ابن تومرت لأحد أعضاء مجلس العشرة وهو عبد الواحد الشرقي.

46 - ابن تيمية (ت 728هـ)، منهاج السنة...، المصدر السابق، ج 8، ص258، 259.

47 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 141.

48 - ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 302.

49 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص 12.

50 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 136.

الدين بن الخطيب[54]، وصاحب الحلل الموشية[55]، والزركشي[56]، ومن المعاصرين عبد المجيد النجار[57]. وممن نفاه سبط ابن الجوزي[58]، وابن خلكان[59]، وابن تيمية[60]، والذهبي[61]، وابن مطروح القيسي[62]، وابن أبي زرع[63]، وابن العماد[64]، ومن المعاصرين مبارك الميلي[65]، وحسن محمود[66]، ومحمد عنان[67]، وأمبروسيو هويثي ميراندا[68].

ونلاحظ -عند من أثبتوا نسبه- اختلافا في سلسلة الأسماء، أو بعض أسماء السلسلة على الأقل، على سبعة أقوال:

---

51 - نفسه، ص 140-141.

52 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 87-88.

53 - ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 1، ص 167 و ج 6، ص 301.

54 - لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، المصدر السابق، ص 56-57.

55 - مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط 1، دار الرشاد الحديثة، المغرب، 1399هـ/1979م، ص 103.

56 - الزركشي محمد بن إبراهيم (ت ق 9)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 3.

57 - عبد المجيد النجار، المهدي ابن تومرت: حياته وآثاره، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 28-30.

58 - سبط ابن الجوزي (ت 654هـ)، المصدر السابق، ج 20، ص 18.

59 - ابن خلكان (ت 681هـ)، المصدر السابق، ج 5، ص 45.

60 - ابن تيمية (ت 728هـ)، منهاج السنة...، المصدر السابق، ج 4، ص 99، و ج 8، ص 259.

61 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 414؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء...، المصدر السابق، ج 19، ص 552؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، تح: محب الدين الخطيب، د ب، ص 534؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، العبر...، المصدر السابق، ج 2، ص 421.

62 - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 172.

63 - نفسه.

64 - ابن العماد الحنبلي (ت 1089)، المصدر السابق، ج 6، ص ص 117-119.

65 - مبارك الميلي (ت 1364هـ)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، ج 2، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، الجزائر، 1406هـ/1986م، ص 355.

66 - حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 177-178.

67 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 159-160.

68 - أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، تر: عبد الواحد أكمير، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2004، ص 32-33.

1- محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل، بن حمزة، بن عيسى، بن عبيد الله، بن إدريس، بن إدريس بن عبد الله، بن حسن، بن الحسن، بن فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم[69].

2- محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل، بن حمزة، بن عيسى، بن عبيد الله، بن إدريس، بن إدريس بن عبد الله، بن حسن بن علي بن أبي طالب[70].

3- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن رباح بن عطاء بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[71]. أورده البيذق وأنكر نسبة المهدي إليه.

4- محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا ابن سفيون بن الكلديس بن خالد[72].

5- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان ابن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[73].

6- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار ابن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب[74].

7- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسين بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب[75].

---

69 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص 12؛ عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 136.

70 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 88؛ ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 301.

71 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص 13.

72 - ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 301.

73 - نفسه، ج 6، ص 301؛ الزركشي محمد بن إبراهيم (ت ق 9)، المصدر السابق، ص 3.

74 - مجهول، الحلل الموشية...، المصدر السابق، ص 103.

75 - لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، المصدر السابق، ص 56-57.

إننا نجد من خلال ما سبق نسبة عربية محضة متضاربة مع نسبتين بربريتين مختلفتين في المبدأ عربيتين في المنتهى، مع وجود كثير من الاختلاف بين الأسماء، والتقديم والتأخير بين بعض الأسماء، أو زيادات نجدها في سلسلة معينة، بينما هي غائبة في سلسلة أخرى، إضافة إلى إنكار البيذق للنسبة العربية المحضة. وهذا الاضطراب يكفي وحده لاستحالة الحكم على ثبوت نسب ابن تومرت إلى آل البيت، فكيف إذا ضممنا إليه تأكيدات أخرى نجزم من خلالها أن هذا النسب من وضعه هو حتى يوافق دعوى المهدي الإمام المعصوم، وإلا فإن ابن تومرت بربري الجنس أصله من قبيلة هرغة إحدى قبائل مصمودة كما حقق ذلك غير واحد.

من ضمن هذه التأكيدات إثبات عقِبٍ من الأبناء لمحمد بن الحسن في بعض أقوال النسب السبعة المذكورة سابقا، ومحمد بن الحسن هذا لم يعقب، كما قاله الحافظ منصور بن العمادية[76]. فعُلم بطلان بعض تلك الأقوال على الأقل.

ومنها أن ابن تومرت استغل عدة معتقدات تقوي مكانته وتكسبه أتباعا كفكرة المهدية والعصمة، وذلك يعني أنه لن يتورع عن القول بأنه من نسل آل بيت النبوة، خصوصا إذا علمنا أن البيئة التي بث فيها ابن تومرت أفكاره ومعتقداته كانت ساذجة غير متعلمة في الغالب[77].

ومنها أنه لم يفصح عن نسبه دفعة واحدة، بل تدرّج فيه بتحضير أتباعه لقبوله شيئا فشيئا، فبعد أن قبلوا دعوته وترسخت فيهم، أخذ يشوّقهم للمهدي ونسبه، ثم لما قبلوا ذلك ادّعى أنه هو المهدي، فقال: أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم[78].

ومنها أيضا أن أكثر من تكلم في نسب ابن تومرت أنكر هذه النسبة عليه، واعتبره دعيًّا فيها كسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، وابن تيمية، والذهبي، وابن مطروح القيسي، وابن أبي زرع، وابن العماد الحنبلي. بينما أيّدها مؤرخو البلاط الموحدي كالبيذق والمراكشي وابن القطان ومؤرخو البلاط الحفصي كابن خلدون والزركشي، ومن تبعهم لاحقا مقلِّدا لهم دون تمحيص. يقول مبارك الميلي عن ابن خلدون في هذا الشأن:" ولعلنا بهذا الفصل وضعنا أساس البحث للناقد البصير في قواعد ابن خلدون الاجتماعية التي

76 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء...، المصدر السابق، ج 19، ص 552.
77 - ابن خلكان (ت 681هـ)، المصدر السابق، ج 5، ص 48-49.
78 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 140-141.

وضعها على حساب العرب البداة دون الحفصيين الملوك الذين كان ريشه منهم هواه معهم. يعرف ذلك من عرف حياته ودقق النظر في أساليب تاريخه. فأدرك الفرق بين أسلوبه في الدولة الحفصية وأسلوبه في غيرها. حتى أنه أجهد نفسه في تصحيح نسب ابن تومرت في آل البيت ونسب الحفصيين في آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أنه أنكر أنسابا هي أقوى من هذين النسبين"[79]. ويقول محمد عنان عن نسب ابن تومرت:" ونحن لا نرى في هذه النسبة العربية النبوية التي يدعيها ابن تومرت لنفسه، والتي يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم، إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعاراً لإمامته ورياسته الدينية والسياسية، ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التي تشق طريقها إلى السلطان، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية"[80].

وعليه لا يساور الباحث أدنى شك من أن ابن تومرت بربري النسب، لكن وبعدما ادّعى أنه المهدي المنتظر وجب ابتداع جينيالوجيا تثبت أصله الشريف، حتى تطابق ما جاء في الأحاديث التي تأتي على ذكر صفات المهدي، كقوله صلى الله عليه وسلم: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي"[81].

4- تشويه عقائد المرابطين:

من المعلوم أن المرابطين كانوا يدينون بعقائد أهل السنة التي توارثوها عنهم جيلا بعد جيل، وهي عقائد الإمام مالك وغيره من علماء السّلف. وقد خالف ابن تومرت هذه العقائد السلفية مبتدعا خليطا ومزيجا من العقائد[82]، أخذ أكثرها عن الأشاعرة مع ما أضافه إلى ذلك من مسائل اعتقادية مأخوذة عن بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة والخوارج والرافضة وغيرهم. يقول عبد الواحد المراكشي: "وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية"[83]، وقال أيضا: "ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه: أعز ما يطلب، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها.

79 - مبارك الميلي (ت 1364هـ)، المرجع السابق، ج 2، ص 355.
80 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 160.
81 - رواه أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: أحمد شاكر، ج 3، ط 1، دار الحديث، القاهرة، 1416هـ/1995م، ص 491.
82 - ينظر على سبيل المثال كتابيه المرشدة وأعز ما يطلب.
83 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 139.

وكان يبطن شيئًا من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء"[84]. ويقول ابن خلدون: "وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الّذي افتتحه بقوله: "أعزّ ما يطلب"، وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك الكتاب"[85].

ومن بين قضايا الإعتقاد التي خالف فيها ابن تومرت عامة أهل السنة والمرابطين مسائل الأسماء والصفات، حيث كان المرابطون يثبتون الأسماء والصفات بما سمى ووصف الله به نفسه في القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم في السنة النبوية على طريقة السلف. فيثبتون معاني الصفات حقيقة ويرُدُّون كيفيتها إلى الله لعدم علمهم بهذه الكيفية، وذلك تنزيها منهم له عن التأويل والتشبيه والتعطيل والتحريف، لقوله تعالى: **{وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ}**[86]، وقوله: **{لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ}**[87]، ولقوله أيضا: **{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ }**[88]، وغيرها من الأدلة.

وليس هذا مجال بسط هذه المسائل وإنما محلها كتب العقائد. وما يهمنا هنا أن ابن تومرت كانت له عقائد تسمّى مذهب الفكر[89]، وهي مغايرة لما كان عليه أهل السنة قاطبة ومنهم المرابطون.

من عقائد ابن تومرت أنه كان يصرّح بنفي الصفات[90]. يقول ابن تيمية في هذا الشأن: "...المعتزلة ومن تبعهم ينفون صفات الله عز وجل، ويقولون إن ثبوت الصفات يقتضي

---

84 - نفسه، ص 141.

85 - ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 302.

86 - الآية 180 من سورة الأعراف.

87 - الآية 103 من سورة الأنعام.

88 - جزء من الآية 11 من سورة الشورى.

89 - ابن القلانسي (ت 555هـ)، المصدر السابق، ص 453. وقد سبق أن أشرنا أنه تقديم العقل على النقل.

90 - ينظر متن المرشدة عند ابن رشيد السبتي (ت 721هـ)، رحلة ابن رشيد المسمّاة ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطَيبة، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م، ص 345-346؛ وينظر شيء من الكلام عنها عند ابن تيمية (ت 728هـ)، منهاج السنة...، المصدر السابق، ج 3، ص 296-297؛ ابن تيمية (ت 728هـ)، مجموع الفتاوى، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ج 6، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1425هـ/2004م، ص 518.

كثرة وعددًا في ذاته، وذلك خلاف التوحيد، ويسمون أنفسهم الموحدين، والعلم الذي يعلم له هذا علم التوحيد وهذا عندهم أول الأصول الخمسة التي هي عندهم التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وانفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن هنا أخذ محمد بن التومرت هذا اللقب وسمى طائفته الموحدين، ووضع لهم المرشدة المتضمنة لمثل عقيدة المعتزلة وغيرهم من الجهمية في التوحيد ولم يذكر اعتقاد الصفاتية كابن كلاّب والأشعري فضلاً عن اعتقاد السلف والأئمة"[91]. وقال أيضا: " ولهذا رأيت لابن التومرت كتاباً في التوحيد صرح فيه بنفي الصفات، ولهذا لم يذكر في مرشدته شيئاً من إثبات الصفات ولا إثبات الرؤية، ولا قال إن كلام الله غير مخلوق ونحو ذلك من المسائل التي جرت عادة مثبتة الصفات بذكرها، ولهذا كان حقيقة قوله موافقاً لحقيقة قول ابن سبعين والقائلين بالوجود المطلق موافقة لابن سينا، وقد ذكر ابن التومرت في فوائده المشرقية أن الوجود مشترك بين الخالق والمخلوق، فوجود الخالق يكون مجرداً ووجود المخلوق يكون مقيداً"[92]. وقال كذلك: " ولهذا اختار كل مبطل أن يأتي بمخاريق لقصد صلاح العامة، كما فعل ابن التومرت الملقب بالمهدي، ومذهبه في الصفات مذهب الفلاسفة لأنه كان مثلها في الجملة، ..... بل كان فيه نوع من رأي الجهمية الموافق لرأي الفلاسفة، ونوع من رأي الخوارج الذين يرون السيف ويكفرون بالذنب"[93].

ومن معتقداته أنه نسب النسيان لله عز وجل[94].

ومنها أنه كان يكتب التمائم والحروز[95]، مع ادعاءه أنه من الموحدين، ورغم ورود النهي عن ذلك[96].

---

91 - ابن تيمية (ت 728هـ)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تح: مجموعة، ج 3، ط 1، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1426هـ، ص 102-103.

92 - ابن تيمية (ت 728هـ)، درء تعارض العقل والنقل، تح: محمد رشاد سالم، ج 3، ط 2، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1411هـ/1991م، ص 438-439.

93 - ابن تيمية (ت 728هـ)، الفتاوى الكبرى، ج 3، ط 1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1408هـ/1987م، ص 501.

94 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص 43.

95 - نفسه، ص 18، 19.

96 - لقوله صلى الله عليه وسلم: " من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له "وقوله: " من علق تميمة فقد أشرك " رواه أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: مجموعة بإشراف عبد الله التركي، ج 28، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ/2001م، ص 623، وص 637.

لقد أطلق ابن تومرت حملة شعواء من النبز والسخرية والتكفير ضد المرابطين، فكان ينبزهم بالمجسمين[97] لإثباتهم الصفات. قال ابن تيمية: "واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة يقرءون القرآن والحديث: كالصحيحين والموطأ وغير ذلك، والفقه على مذهب أهل المدينة. فزعم أنهم مشبهة مجسمة، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم. واستحل أيضا أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه"[98]. ويقول الذهبي ناقلا عن اليسع بن حزم الغافقي المؤرخ الأندلسي الذي كان معاصرا للموحدين: "قال اليسع بن حزم: سمى ابن تومرت أتباع المرابطين مجسمين، وما كان أهل المغرب يدينون إلا بتنزيه الله تعالى عما لا يجب له، وصفته بما يجب له، وترك الخوض فيما تقصر العقول عن فهمه، وكان علماء المغرب يعلّمون العامة أن اللازم لهم أن الله "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"، إلى أن قال: فكفرهم ابن تومرت بوجهين، بجهل العرض والجوهر، وأن من لا يعرف ذلك لا يعرف المخلوق، ولم يعرف الخالق، الوجه الثاني: إن من لم يهاجر إليه ولم يقاتل المرابطين معه فهو كافر، حلال الدم والحريم"[99].

ويبدو أن عملية التشهير بالمرابطين بأنهم مجسمين بدأت مع بداية دعوة ابن تومرت بتينملل[100] في دخوله الأول إليها[101]، "قال الأمير عزيز في كتاب الجمع والبيان في

---

97 - ابن تومرت (ت 524هـ)، أعز ما يطلب، تح: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997، الصفحات 270، 385، 387، 388، 390، 391، 392؛ البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، الصفحات 35، 37، 38؛ ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، الصفحات 97، 132.

98 - ابن تيمية (ت 728هـ)، مجموع الفتاوى...، المصدر السابق، ج 11، ص 478.

99 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 417.

100 - كتابة هذا الإطار الجغرافي غير متفق عليها، فوقع ضبطها على خمس أو ست كتابات: تِينُ مَلَّل، تينمل، تينملّل، تين مل، تنمل، تينمال. والأكثر شهرة واستعمالا تينملل. وهي محلة صغيرة من عمل هرغة تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل دَرَن من شعب جبال الأطلس على قيد نحو مائة كيلومتر من جنوب غربي مراكش، استقر بها ابن تومرت بعد مغادرته جبل إيكَلي، فقسم أرضها وديارها على أصحابه، وابتنى بها حصناً في قمة الجبل يشرف عليها من عل، وابتنى كذلك داراً ومسجداً، وأدار حول وهداتها سوراً. وكان اختيار المهدي لهذه البلدة يرجع بالأخص إلى حصانة موقعها الفائق، وكان الوصول إليها من الغرب من طريق ضيق لا يتسع إلا لفارس واحد، ومن الشرق كذلك من طريق في بطن الجبل تحت راكبها حافات وفوقه حافات، والسير فيها خطر شاق. وهكذا استقر المهدي في تينملّل، وجعلها مقر رياسته، ومركز جهاده، وبذلك أضحى على مسافة قليلة من العاصمة المرابطية

أخبار القيروان: إن ابن تومرت أقام بتينملل، وسمى أصحابه وأتباعه بالموحدين، والمخالفين أمره: مجسمين، وأقام على ذلك نحو العام، فاشتهر أمره سنة خمس عشرة"[102].

وقد دفعه حقده اللامحدود عليهم للإتيان بقرابة أربعين دليلا من القرآن والسنة، ينزّل معانيها ودلالاتها على المرابطين، يحاول من خلالها تكفيرهم وإثبات ردّتهم عن دين الإسلام، وبهذه الأدلة وجد سندا شرعيا للإفتاء بتحريم طاعتهم وجهادهم وإحلال دماءهم وأموالهم[103].

قد يقول قائل إن تكفير المرابطين نقلته حصريا المصادر المخالفة لعقيدة ابن تومرت أو من هم متحاملون على الموحدين، غير أن حقيقة الأمر أن المصادر الموحدية نفسها أو من هي موالية لها أثبتت نفس الحكم وتناقلته، فقد كفرهم ابن تومرت في كتابه أعز ما يطلب[104]، وها هو ابن القطان مثلا ينقل تكفير ابن تومرت لهم قائلا: "وطاعتهم حرام لأنهم كفار ومنافقون ومتبعو الهوى ومعتدون ومفسدون وجاهلون"[105]. وقال ابن خلدون عنه: "كان ينتحل مذهب الأشعريّة في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على

مراكش. ينظر في ضبطها والتعريف بها: كاتب مراكشي (ت ق 6)، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص 208؛ ياقوت الحموي (ت 626هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 69؛ ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 140؛ النويري (ت 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، ط 1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ، ص 282؛ ابن سعيد المغربي (ت 685هـ)، الجغرافيا، تح إسماعيل العربي، ط 1، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1970، ص 125؛ ابن خلكان (ت 681هـ)، المصدر السابق، ج 5، ص 51. وأوردت هنا كلام محمد عنان لأنه تعريف جامع تقريبا، ولأن محمد عنان زار المكان وعاينه. محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 182.

101 - هذا الدخول الأول إليها والذي لم يمكث ابن تومرت فيه طويلا، بل حطّ بعدها بعدة محطات ليستوطن بعدها جبل إيكَلي لمدة ثلاث سنوات، ثم يعود مرة ثانية إلى تينملل. ينظر البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص ص 32-34.

102 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 415.

103 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص ص 385-394.

104 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، الصفحات 387، 388، 390، 391، 392.

105 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 98.

مذهب السلف في إقراره كما جاء. ويرى أن الجمهور لقّنوه تجسيما، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولي الأشعرية في التكفير"[106].

إن ما يلفت الإنتباه من خلال هذا المسلك هو أن يتحول ابن تومرت الذي رفض كل اجتهاد من علماء الدولة المرابطية في المسائل الفقهية التي ليس عليها دليل أو تتجاذبها اختلافات في أوجه الدلالة بحيث أَطلَق عليهم: علماء الفروع؛ على اعتبار أنه لا مكان للإجتهاد في التشريع الإسلامي عنده، وأنّ مردّ ذلك إلى القرآن والسنة حصرا، يتحول هو في نفس الوقت إلى شخص يرى بضرورة إعمال العقل في آيات الصفات مع أنها قطعية الدلالة ولم يختلف فيها العلماء الأوائل ويرى كذلك بضرورة الجدل في القضايا التي تمس جوهر العقائد، حيث نفى الصفات على طريقة المعتزلة مقاطعا بذلك حتى للعقيدة الأشعرية التي تبناها بشكل كبير.

من خلال الكلام السابق يُعلم أن ابن تومرت هو من قام بإدخال العقيدة الأشعرية وبثّها في بلاد المغرب التي كانت قبل ذلك سنية سلفية. كما أنه لم يدخل العقيدة الأشعرية فحسب بل أدخل معها وأضاف إليها معتقدات أخرى كما أشرنا إلى ذلك سابقا في مواطنه.

5- تشويه فقه المرابطين:

عمل المغاربة بمذهب الإمام مالك قبل مجيء الموحدين بعدّة قرون، فكان هو المعتمد عندهم في الأحكام والفتوى، له أصوله وقواعده التي بُني عليها، شأنه في ذلك شأن المذاهب الفقهية المشهورة الأخرى. فلما جاء ابن تومرت بآرائه عمل على انتقاد الكثير من الأحكام الفقهية المالكية إن لم نقل إنه عاب على المرابطين تشبُّثهم بالمذهب المالكي جملة وتفصيلا، فركّز إنكاره الفقهي على مستويين: إنكار عام وآخر خاص.

تمثل إنكاره العام في حملته على علماء وكتب الفقه المالكي عموما، بما سماه كتب الرأي والتقليد[107] والجمود. أي أن هذه الكتب لا تستند على أدلة شرعية، وإنما هي مجرد جمود على تقليد آراء وأقوال العلماء. ولهذا فإنّ خليفته عبد المؤمن بن علي طبق مِن بعدِه مبادئ دعوته، ففي سنة 550هـ/1155م أمر بتحريق كتب الفروع وردّ الناس إلى قراءة كتب

106 - ابن خلدون (ت 808هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 303.

107 - لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، المصدر السابق، ص 57؛ الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 1، ص 292، و ج 2، ص 456-457.

الحديث أي أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعا وهي نفس نظرية المذهب الظاهري[108].

وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة، ومعارضته لجهود المجتهدين، والاستنباط في مجال الاجتهاد، من الأمور المنطقية، لأن ابن تومرت يتشح بثوب "الإمام المعصوم" الذي لا تُبحث آراؤه، ولا تُرد أحكامه[109]. وكانت هذه الملاحظة من بين الأسباب التي أدت بالحكم لدى الأوساط المثقفة على ابن تومرت بأنه ظاهري المذهب[110].

وبالرجوع إلى بعض مؤلفاته ككتابه "أعز ما يطلب"، يتبين أن ابن تومرت يوجب العمل بظاهر نصوص الأحكام دون النظر إلى القرائن التي تصرف بعض معاني هذه النصوص عن ظاهرها[111]، كما أنه يرى الأخذ بظاهر النص احتياطا دون العمل

108 - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 195.

109 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 203.

110 - ينظر على سبيل المثال فيمن حكم عليه بأنه ظاهري، الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 1، ص 292، و ج 2، ص 87، و ص 456-457؛ محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 203؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج 10، ط 1، دار المعارف، مصر، 1995، ص 324-325، و ص 487-488.

111 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص 278-279.

بفحوى الخطاب[112]، ولهذا فهو يعلق الأحكام على الألفاظ فقط دون المعاني[113]، بل إنه ذهب إلى إنكار قياس الصحابة[114].

ومن عجيب التناقضات أن ابن تومرت يخالف في مواضع عدّة هذه التأصيلات المذكورة، فيحاول إثبات شيء من القياس العقلي[115]، كما أنه يذهب إلى تأويل نصوص العقائد عن طريق الإجتهادات العقلية دون التقيد بالدلالات الظاهرة لهذه النصوص كما أشرنا إلى ذلك سابقا. وعليه فأقل ما يمكن قوله إن ابن تومرت ليس له منهج مطرّد في التعامل مع النصوص. ولهذا فقد ابتدع عبادات-كما سيأتي- لم تكن معروفة عند السابقين، لا عند أهل السنة، ولا عند داوود الظاهري، ولا حتى عند من نصر مذهبه من أمثال ابن حزم القرطبي[116].

أما إنكاره الخاص على فقه المرابطين، فقد عُرف عن ابن تومرت أنه كان ينبزهم - كما هي عادته- بعدة أوصاف يزعم من خلالها بُعدَهم الفقهي عن القرآن والسنة، فعلى سبيل المثال ذكر عن رجالهم أنهم يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلثّم والتنقيب[117]، وقال عنهم الجواري المنقّبات[118]، والحشم[119] لأنهم يتلثمون كما تفعل النساء المحتشمات[120]، وأورد تشبّه نسائهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثّم ولا تنقيب[121].

وإذا دققنا النظر في هذه المسألة بالذات، يتبين أن ابن تومرت أخلط في شطر منها بين ما هو عادة وبين ما هو عبادة، وأما القسم الآخر فلا يعدو أن يكون مسألة فقهية مختلف فيها بين علماء الأحكام الفقهية. فعن عادة اللّثام نقول إن تلثّم رجال المرابطين

112 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص 282-283.
113 - نفسه، ص ص 281-283.
114 - نفسه، ص 278-279.
115 - نفسه، ص 277.
116 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 1، ص 292.
117 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص 390.
118 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص 27.
119 - نفسه، الصفحات 24، 35.
120 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 132.
121 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص 391.

لم يكن من قبيل العبادات، وإنما كانت عادة عند رجالهم ورجال قبائل الطوارق. وقد اختلف المؤرخون في سبب تلثّم رجالهم لكنهم لم يكونوا يريدون قطعا التشبه بالنساء. أما مسألة عدم تغطية المرأة المرابطية لوجهها أو ما يعرف بالسفور، فنحن نعلم قِدَم اختلاف علماء الفقه في حكم تغطية المرأة لوجهها عموما بين الوجوب والإستحباب. ولا شك أن الإمام مالك -الذي عمل المرابطون بمذهبه- كان يفتي بأن وجه المرأة وكفّاها ليس بعورة[122]، ومن بين الأدلة التي استدل بها قوله صلى الله عليه وسلم:" إن المرأةَ إذا بَلَغَتِ المَحِيضَ لم يصلُحْ أن يُرى مِنَها إلا هذا وهذا" وأشار إلى وجهه وكفَّيْهِ[123]. ولقد كان العمل على هذا بين نساء المرابطين وغالب نساء المغرب.

أما إذا قارنا كثيرا مما انتُقد على المرابطين -وإن كان له أصل في الإسلام- ببعض ما جاء به ابن تومرت من أمور جديدة فرضها على أتباعه، نرى تناقضا عجيبا ممن يدّعي أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم وأنه يتبع الظاهر من القرآن والسنة. من ذلك أنه ابتدع وجوها من التثويب في أذان الفجر إذ كانوا ينادون عند الصلاة بـ"تاصاليت الإسلام" و"بتقام تاصاليت" و"سودرتن" و"باردي" و"أصبح ولله الحمد" وغير ذلك من وجوه التثويب إشعارا بأن الفجر قد طلع، لإلزام الطاعة، ولحضور الجماعة، وللغدو لكل ما يؤمر به الأتباع[124]. وقد جرى العمل بجميعها في زمن الموحدين، ثم زالت مع الزمن بعد انقراض دولتهم[125].

122 - عبد الوهاب بن علي الثعلبي البغدادي المالكي (ت 422هـ)، عيون المسائل، تح: علي محمَّد إبراهيم بورويبة، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1430هـ/2009م، ص 295.

123 - أبو داود السجستاني (ت 275هـ)، المصدر السابق، ج 6، ص 199.

124 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 168.

125 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، الصفحات 87، 410، 457.

ومن ذلك أيضا أنه كان يبيح التعطّر للنساء[126]، مع ورود النهي عن ذلك[127]. إلى غير ذلك من الإختراعات[128].

ومنها أنه أول من أدخل إلى المغرب قراءة القرآن جماعة أو ما يسمى بالحزب الراتب الذي كان يقام بالإسكندرية، فصار هو المعمول به منذ عهده في جوامع المغرب والأندلس[129] وغيرها، فكان يُقرأ مرتين في اليوم؛ بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب[130].

والحاصل من هذا كله أن ابن تومرت كان مؤوّلا في العقائد، ظاهريا في كثير من الأحكام، مبتدعا لبعض الأمور التي ليس عليها دليل ظاهر.

6- تشويه سمعة المرابطين:

كان ابن تومرت يعمل ضد المرابطين على جميع الأصعدة، ويخدم دعوته ويشيد بنظريته "الإمام المعصوم والمهدي المنتظر"، وهي التي اتخذها دعامة لزعامته الدينية، وسلطانه السياسي. وقد حاول تشويه سمعتهم توازيا مع التشويه العقائدي والفقهي، محرضا على الخروج على سلطانهم، وتحطيم دولتهم.

فإلى جانب نعته للمرابطين بالملثمين والمجسمين، والحشم، فإنه يخصهم في كتابه بعدة فصول، يُشهر فيها عليهم الخصومة والبغض، ويحاول أن يسبغ على حملته لون القداسة، وأن يردها إلى أصول دينية. ويقول إن لهم علامات خاصة يعرضها في قوله[131]:

126 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص 13.

127 - لقوله صلى الله عليه وسلم: " أيما امرأة استعطرت، فمرت بقوم ليجدوا ريحها، فهي زانية" رواه أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: مجموعة بإشراف عبد الله التركي، ج 32، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ/2001م، ص 483.

128 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 458.

129 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، الصفحات 81، 168؛ الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 410.

130 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 457.

131 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 210.

"جميع علاماتهم ظاهرة، منها ما ظهر قبل مجيئهم من كاكدم، ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد، ومنها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم. فالذي ظهر منها قبل مجيئهم خمس: إحداهن أنهم الحفاة، والثانية أنهم العراة، والثالثة أنهم العالة، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله، والذي ظهر منها بعد أخذهم البلاد سبع، إحداهن أنهم في آخر الزمان، والثانية أنهم ملوك، والثالثة أنهم يتطاولون في البنيان، والرابعة أنهم يلدون مع الإماء، ويستكثرون من الجواري، والخامسة أنهم صمّ، والسادسة أنهم بكم، يعني أنهم صمّ عن الحق لا يستمعون إليه، بكم عن الحق لا يقولون به ولا يأمرون به، وكل ذلك راجع إلى الجهل والعدول عن الحق، والسابعة أنهم ما هم أهلا للأمانة والقيام بأمر الله. والذي ظهر من أحوالهم وأفعالهم ثمان: إحداهن أنهم في أيديهم سياط كأذناب البقر، والثانية أنهم يعذبون الناس ويضربونهم بها، والثالثة أن نساءهم رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، يعني أنهن يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة، والرابعة أنهم كاسيات عاريات، والخامسة أنهن مائلات يعني عن الحق والرشاد، والسادسة أنهن مميلات يعني مميلات لغيرهن، والسابعة أنهم يغدون في سخط، والثامنة أنهم يروحون في لعنة. هذه علاماتهم، وجملة علاماتهم عشرون، أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به"[132].

ويحاول ابن تومرت أن يثبت صحة هذه العلامات بإيراد أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيها ذكر للعلامات المتقدمة، وأنها من علامات الساعة، وأن الرسول يدمغ فيها أصحاب هذه العلامات، بالنار والسخط والغضب واللعنة، ويُنَزِّلُها على المرابطين.

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالبهم، وتحريم طاعتهم، والحض على جهادهم، في عدة أبواب رتبت كما يأتي:

* باب فيما أحدثوه من المناكر والمغارم، وتقلبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون، وفيه يغدون وفيه يروحون، وتجسيمهم وكفرهم أكبر.

* باب في تحريم معونتهم على ظلمهم، وتصديقهم على كذبهم.

* باب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم على ظلمهم، وصدقوهم على كذبهم، وبيان أفعالهم على ثلاث فرق.

132 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص 385.

* باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم، والتشبه بهم، وتكثير سوادهم وحبهم.

* باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم.

* باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم.

* باب في وجوب جهادهم على الكفر والتجسيم وإنكار الحق، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم.

* باب في وجوب جهاد من ضيّع السنة ومنع الفرائض.

* باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لا يؤمرون به.

* باب في وجوب جهادهم على العناد والفساد في الأرض[133].

كما يُنقل عنه أنه أسبغ عليهم اسماً جديداً هو "الزراجنة "[134] وذلك تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان، وهو طائر أسود البطن أبيض الريش، لأنهم أي المرابطين " بيض الثياب وسود القلوب "[135].

نلاحظ أن المرابطين موصوفون عند ابن تومرت بكل الأوصاف المرذولة، فهم المجسمون والكفرة والمنافقون، والهادمون للدين، والمميتون للسنة، والمتمادون على الفساد وعلى الظلم والطغيان ... ونحن **لا ننكر أن المرابطين قد وقعوا في أخطاء**، لكننا نرى أن كيل مثل هذه الأوصاف لهم جزافا ليس إلا من مظاهر الغلو الذي وقع فيه ابن تومرت.

7- التنظيم السياسي:

لا شك أن أي زعيم سياسي يكون مراده الوصول إلى نيل السلطة، سيسعى إلى أن يكون لديه أجهزةً سياسية وعناصر بشرية تساعده وتوصله لتحقيق ذلكم المطلب. وهذا ما

133 - ابن تومرت (ت 524هـ)، المصدر السابق، ص ص 385-394.
134 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص 25.
135 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 132.

قام به ابن تومرت عندما عمد إلى تكوين مجالس سياسية مرتبة عدديا في الغالب، وكان كل مجلس يقوم بدوره الذي كُلِّف به من قبل القائد. وأصحاب هذه المجالس ومن دخل معهم في الطاعة هم الذين أطلق عليم ابن تومرت: الموحدين. وكان يسميهم أيضا المؤمنين، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم. وأنتم العصابة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله"[136]، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة[137].

فمن تلكم المجالس، مجلس "آيت عشرة"، بمعنى أهل عشرة[138]، وسماهم تلميذه البيذق "أهل الجماعة"، وهم اثنا عشر رجلا من خواص ابن تومرت وأهل مشورته، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، السابقون إلى متابعته، وكل فرد منهم له مهامه الموكلة إليه فمنهم من يكتب الرسائل، ومنهم من يقضي بين الناس، ومنهم أمين الجماعة، ومنهم إمام الصلوات الخمس[139].

ومنهم مجلس "آيت خمسين"[140]، يعني أهل خمسين، وعددهم حوالي أربعة وخمسين[141]، وهم دون طبقة العشرة، وهم جماعة من رؤساء القبائل[142].

136 - لم أجده بهذا اللفظ، ووجدته بلفظ مشابه. رواه أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (ت 316هـ)، المصدر السابق، ج 15، ص 474.

137 - عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 141.

138 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 659.

139 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص ص 30-32.

140 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 659.

141 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص ص 32-35.

142 - نفسه، ص ص 32-35؛ ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 659.

ومنهم "آيت سبعين"، يعني أهل سبعين، وهي طبقة دون التي قبلها[143]. فكان ابن تومرت يعقد الأمور العظام مع أصحابه العشرة، لا يحضر معهم غيرهم، فإذا جاء أمر أهون أحضر الخمسين، فإذا جاء دون ذلك أحضر معهم السبعين[144].

وهناك مجالس أخرى: كطبقة الطلبة، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة، وطبقة أهل الدار[145]. هذا بالإضافة إلى بعض القبائل البربرية التي كان يحتمي بها زيادة على هذه المجالس كأهل هرغة، وأهل تينملل، وأهل جدميوة، وأهل كنفيسة، وأهل هنتاتة ، وأهل القبائل الأخرى، وأخيرا طبقة الغرّات وهم الأحداث الصغار الأمّيون[146]. كما أضاف ابن الخطيب مجلسا آخرا يسمى أهل الساقة، وقد أُنشأ هذا المجلس خصيصا للمباهاة[147].

وقد ترك لنا ابن القطان شيئا من الأحكام والعقوبات التي يحاكم بها ابن تومرت مجالس أصحابه، فقال:" ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في السفر ولا في الحضر، وأحدهم في تارك امتثال أمر من يسمع أمره بالقتل، وبايعوه على هذا، وكان رضي الله تعالى عنه يعظهم في كل وقت ويذكرهم، ومن لم يحضر أُدب، فإن تمادى قُتل، وكل من لم يحفظ حزبه عُزر بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أُدب به ضُرب بالسوط المرة والمرتين، فإن ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قُتل، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل، وشدّد في المعاملة، وضبط أمرهم فيها فانضبط. وأقاموا على ذلك مدة يتسامع الناس تقلب أحوالهم فيها"[148].

وبهذه العناصر البشرية استطاع ابن تومرت أن يحقق عدة مطالب: جهاز تربوي يحافظ على عقائد ومبادئ ابن تومرت، وجهاز سياسي يتخذ قرارات سياسية مصيرية، وجيش عسكري حربي يحمي الموحدين ويحارب جيوش المرابطين.

8- حرب السلاح:

143 - ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 659.

144 - مجهول، الحلل الموشية...، المصدر السابق، ص 108-109.

145 - وهم حوالي عشرون شخصا يختصّون بخدمة ابن تومرت. وقد رتبه البيذق على أنه أول مجلس لكننا نرى إرجاءه للمرتبة السادسة لسابقة المجالس الخمسة الأولى. ينظر البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، المقتبس...، المصدر السابق، ص 25-26.

146 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 82.

147 - لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ)، المصدر السابق، ص 57.

148 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 83.

نعلم أن علي بن يوسف اكتفى بإبعاد ابن تومرت عن الحاضرة مراكش، فاستقر هذا الأخير بجبل إيكَلي[149]، أين كشف عن حقيقة نيته ومشروعه. وبما أن ابن تومرت حقق تقدّما كبيرا في إنجاح هذا المشروع، لم يبق أمامه سوى العمل العسكري لضرب المرابطين، وهو الشيء الذي باشره مع أتباعه، إما توجيها لهم، أو حضورا معهم في بعض المعارك. وقد امتدت مدة معاركه -وهو في منصب الإمامة- ضد المرابطين أو بعض القبائل التي تباطأت في الإستجابة لدعوته من سنة 516هـ/1122م[150] حتى سنة وفاته 524هـ/1130م، أقام منها ابن تومرت ثلاث سنوات بجبل إيكَلي[151]، وست سنوات بتينملل[152]، وخاض وهو مستقر بالموضعين تسع معارك حسب البيذق[153]، حيث نرى هذا الأخير يذكر اسم شيخه "المعصوم" عنده في سبع معارك منها دون البقية، مما قد يوحي أن ابن تومرت كان حاضرا في كل هذه السبعة، وموجّها للجيش في الإثنتين الباقيتين. والحق أن الذي يفهمه المؤرخ الناقد من كلام البيذق المبالغ فيه أن ابن تومرت

149 - كتابة هذا الإطار الجغرافي غير متفق عليها، فوقع ضبطها على سبع أو ثمان كتابات: إيكَيلي، إيكَلي، إيكلين، إيجلي، إيجليز، إيكَليز، كيليز، إيجيليز، الجبلين. والصحيح من ذلك: إيكَيلي كما عند البيذق، أخبار المهدي...، ص 32، أو إيكَلي. وهناك من يضبطها إيجلي بحكم نطق الجيم بين الكاف والقاف، مثل الجيم المصرية، وعلى هذا الأكثرون. أما ما عدا ذلك فهو خطأ. جبل إيكَلي من شعب جبال المصامدة، استوطنه ابن تومرت أواخر سنة 514هـ، وتحصن فيه مع أنصاره، وكان لهذا الجبل طريق واحد ضيق وعر لا يستطيع أن يسلكه سوى فارس واحد، وتصعب مهاجمته على أية قوة محاربة. ينظر في ضبطها والتعريف بها: أبو عبيد البكري (ت 487هـ)، المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 853؛ الإدريسي (ت 560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1، ط 1، عالم الكتب، بيروت، 1409، ص 233؛ ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، الصفحات 78، 124، 133؛ الحميري (ت 900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط 2، دار السراج، بيروت، 1980، ص 71؛ الناصري السلاوي (ت 1315هـ)، المرجع السابق، ج 2، ص 93.

150 - لا تناقض بين هذه التواريخ وبين التواريخ التي سبقت، ففي أواخر سنة 514هـ كانت بداية ابن تومرت بجبل إيكَلي كما عند البيذق، أخبار المهدي...، ص 32، وفي سنة 515هـ بويع بالإمامة، وأما المعارك التي قادها وهو في منصب الإمامة فبدأت في شعبان سنة 516هـ.

151 - يحتسب ابن الراعي الثلاث سنوات لمكوث ابن تومرت بجبل إيكَلي من سنة 515هـ إلى سنة 518هـ، فإذا دققنا حسابها نجدها أربع سنوات وليست ثلاث، فربما أدخل ابن الراعي تجوّزا سنة بيعة ابن تومرت بالإمامة 515هـ مع سنة 516هـ تاريخ بداية المعارك وهو في ذلك المنصب، وإلا فهو خطأ حسابي. ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 133.

152 - نفسه، ص 123.

153 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص ص 35-39.

اكتفى بدور الموجّه في كل المعارك عدا اثنتين من التسعة وقع التصريح من ذات البيذق أن شيخه شارك فعليا فيهما، فسقط جريحا في إحداهما وهي الغزوة الخامسة، فالتفّ حوله الأتباع دفاعا عنه[154]، وأصيب أيضا في المعركة السابعة التي كانت ضد قبيلة هسكورة[155]. ولهذا السبب نجد صاحب الحلل الموشية وكأنه قد تفطن لهذه المبالغة، فصرح أن عدد الغزوات التي شارك فيها ابن تومرت بنفسه لا تتعدى أربع غزوات[156].

لقد استعمل ابن تومرت عدّة تكتيكات حربية، واستغل السذاجة والقوة الإيمانية والوفاء الروحي لمبادئه من طرف الأتباع، كما أنه استوطن طيلة هذه المدة موقعين استراتيجيين اختارهما لحصانتهما وصعوبة الوصول إليهما مع سهولة ردّ مختلف الهجومات عنهما نظرا لعلوّهما، وهما جبل إيكَلي وتينملل. وكانت خطة ابن تومرت، أن يلتزم الدفاع في معاقله الجبلية الوعرة، وألا يهبط إلى السهل، ليجبر أعداءه المهاجمين أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله، وكانت هذه الخطة تكبّد المرابطين مشقات جمة، وكان الفشل مصيرهم دائماً كلما حاولوا القيام بدور الهجوم[157].

ذكرت بعض المصادر أن أولى المعارك بين الموحدين والمرابطين خلال هذه التسع سنوات كانت في شعبان 516هـ/1122م[158]، انتهت بهزيمة المرابطين، وكان لهذا النصر أثره البالغ في تقوية الروح المعنوية لدى الموحدين. كما سجلت لنا مصادر أخرى أنه من بين كل المعارك التي تقاتل فيها الطرفان، أربعٌ منها كانت هائلةً ومنكرةً على حدّ تعبير المؤرخ ابن القلانسي، قُتل فيها من الفريقين حوالي مائتي ألف نفس[159].

وقعت بين الموحدين والمرابطين عدّة معارك، يصعب استجلاء تفاصيلها، وتوالت الهزائم على المرابطين بلغت قبل موقعة البحيرة نحو أربعين هزيمة حسب ابن القطان[160]. هذه الهزائم أشعرت ابن تومرت بأنه يسير قُدما نحو القضاء على دولتهم، وأكسبته هو وأنصاره ثقة أكبر، وكان من أثر هذه الثقة أن وجّه رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى

154 - البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، ص 37.
155 - نفسه، ص 38.
156 - مجهول، الحلل الموشية...، المصدر السابق، ص 116.
157 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 184.
158 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 130؛ ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 177-178.
159 - ابن القلانسي (ت 555هـ)، المصدر السابق، ص 453.
160 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 160.

الدخول في طاعته، وتأدية الحقوق، قال فيها: " إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية، أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتلكم، حتى نمحو آثاركم، ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم، سلام السنة لا سلام الرضى[161]".

كما اتخذ ابن تومرت شعاراً لجيوشه علَماً كُتب على أحد وجهيه "الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله"، وكتب على الوجه الثاني "وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله"[162]، وذلك حتى يضفي على قتاله صفة الجهاد الشرعي ضد المرابطين.

9- سفك الدماء:

أشرنا -عند كلامنا عن العناصر السابقة- لشيء من سفك ابن تومرت للدماء، سواء لمخالفيه أو مؤيديه، كقتله لبعض أتباعه الذين أخفاهم بقبور دوارس، وطلب منهم أن يرددوا وهم بالقبور الموهومة: "أنت المهدي المعصوم، وأنت الذي تملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما. ومن اتبعك أفلح ومن خالفك خسر". ورَدْمِه البئر فوق بعض أتباعه أيضا، بعد أن طلب منهم أن يشهدوا بصدق الونشريسي وهم داخل البئر. هذا الأخير الذي كان يدّعي معرفة ما في قلوب أتباع ابن تومرت من الإيمان من عدمه، فكان سببا يوم التمييز بأمر ابن تومرت في قتل سبعين ألفا منهم. وقتل ابن تومرت كذلك بعض رجاله بعد أن أمرهم أن يظهروا أنفسهم بمظهر الموتى الشهداء بأرض المعركة، وجعل لهم متنفسا، فسألهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فأجابوا: نعم، وجدنا ما وعدنا ربنا حقا. وما هذا كله إلا لكي تعمل الدعاية لشخص ومبادئ ابن تومرت عملها.

161 - مجهول، الحلل الموشية...، المصدر السابق، ص 111.

162 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 168.

ولمّا استقر بتينملل، بنى له مسجدا خارج المدينة، فكان يصلي فيه الصلوات مع أتباعه، ثم يجلس على حجر مربع أمام محراب الشريعة[163]، ويعظ الناس فيه، ثم يدخل المدينة بعد العشاء، فلما رأى كثرة أهل الجبل ومنعتهم وعددهم المتزايد خاصة من قبيلة هزميرة الذين كانوا يحضرون وهم مسلّحون، جعلته يشك في نواياهم الحقيقية، وخاف أن يرجعوا عنه وينقلبوا ضدّه، فقال لهم يوما: مالكم تمسكون العدّة، وأصحابنا الموحدون أعزهم الله تعالى لا يمسكونها؟ وأمرهم أن يحضروا مستقبلا بغير سلاح، ففعلوا ذلك عدة أيام، فما شعروا إلا وأصحابه الموحدون قد أحاطوا بهم ومعهم الأسلحة، فأمرهم ابن تومرت بقتلهم، فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل ابن تومرت ومن معه المدينة فأكثر القتل فيها، وسبى النساء، ونهب الأموال، فكان عدد القتلى في تلك الحادثة خمسة عشر ألفا[164]. وقد أنكر الفقيه الإفريقي[165] أحد أعضاء مجلس العشرة هذا القتل الجماعي وغير المبرر لأهل تينملل قائلا: قومٌ أكرمونا وأنزلونا دورهم قتَلْتَهم؟ فقال ابن تومرت لأصحابه: هذا شك في عصمتي، خذوه، فاقتلوه وعلّقوه على جذع، فقُتل هو الآخر لإنكاره هذه الجريمة ثم صُلب[166].

لم يكتف ابن تومرت بهذه المجازر، بل تعداها إلى غيرها بحيث أضحى سفك الدماء منهجا له، وهذا ليس مجرد دعاية معادية للموحدين، فقد شهد المؤرخ اليسع المعاصر لهم أنه كان من بين وصايا ابن تومرت لأتباعه أنهم إذا تمكنوا وظفروا بمرابطٍ أو أحدٍ من أهل تلمسان أن يحرقوه"[167].

---

163 - خيمة في الدوار (قرية في شمالي إفريقية) تتخَذ مدرسة للتعليم. رينهارت دوزي (ت 1300هـ)، تكملة المعاجم العربية، تر: محمد سليم النعيمي، ج 6، ط 1، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، من 1979-2000، ص 294.

164 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 139-140؛ ابن الأثير الجزري (ت 630هـ)، المصدر السابق، ج 8، ص 656-657.

165 - هو أبو محمد يرزيجن بن عمر، سماه ابن تومرت عبد الواحد، وعرف عند الموحدين بعبد الواحد الشرقي. ولقب بالشرقي لقدومه من ملالة ببجاية. ينظر: البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6)، أخبار المهدي...، المصدر السابق، الصفحات 14، 18، 34؛ عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ)، المصدر السابق، ص 138.

166 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 142؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 411.

167 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تاريخ الإسلام...، المصدر السابق، ج 11، ص 411؛ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء...، المصدر السابق، ج 19، ص 545.

لقد وضع ابن تومرت القتل **شرعا معمولا به** على غير سنة الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على حد تعبير الشاطبي[168]... فجعل القتل عقابا في ثمانية عشر صنفا، منها: الكذب، والمداهنة[169]، وأخذهم أيضا بالقتل في ترك امتثال أمر من يستمع أمره، وبايعوه على ذلك، وكان يعظهم في كل وقت ويذكرهم، ومن لم يحضر أُدب، فإن تمادى قُتل، وكل من لم يحفظ حزبه عُزّر بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أُدب به ضُرب بالسوط المرة والمرتين، فإن ظهر منه عناد في ترك امتثال الأوامر قُتل، ومن داهن على أخيه، أو أبيه، أو ابنه، أو من يكرم عليه، أو المقدم عليه؛ قُتل[170]، وكل من شك في عصمته قُتل، أو شك في أنه المهدي المبشر به، وكل من خالف أمره؛ أمر أصحابه فعزّروه، فكان أكثر تأديبه القتل[171]. يقول محمد عبد الله عنان في الشأن ذاته:" هذه الظاهرة الدموية كانت أصلا راسخاً من أصول الدعوة المهدية، وأن المهدي ابن تومرت، كان من أشد الدعاة دعوة إلى سفك دماء خصومه، وقد أبدى في تطبيقها قسوة تدنو إلى الوحشية"[172]. وكأن فعله يشبه فعل الخوارج الأزارقة الذين استحلوا استعراض الناس بالسيف ليروا صدقهم، ولهذا قال عنه الذهبي:" وأقدم على الدماء إقدام الخوارج"[173]. وقال عنه ابن قيم الجوزية:" أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل، ملك بالظلم والتغلب والتحيل، فقتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وكان شرًا على الأمة من الحجاج بن يوسف بكثير"[174].

الخاتمة: من خلال ما سبق، نخلص إلى النتائج التالية:

-أن جميع مسالك التغيير التي قطعها ابن تومرت لم يكن له منها سوى هدف واحد وهو الوصول إلى السلطة، والقضاء على كل من وقف في طريق تحقيق هذا الهدف ولو كان من المقرّبين.

---

168 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 455-456.

169 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 81؛ الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 455-456.

170 - ابن القطان المراكشي (ت ق 7)، المصدر السابق، ص 83.

171 - الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ)، المصدر السابق، ج 2، ص 455-456.

172 - محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ)، المرجع السابق، ج 3، ص 405.

173 - الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء...، المصدر السابق، ج 19، ص 552.

174 - ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تح: عبد الفتاح أبو غدة، ط 1، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، 1390هـ/1970م، ص 153.

-تنوع المسالك عند ابن تومرت أضفى شيئا من الشمولية في التغيير : تغيير ديني بشقيه العقائدي والفقهي، تغيير سياسي وكذلك عسكري.

-كل مسلك لجأ إليه ابن تومرت في التغيير إلا أوقعه غالبا في تناقضات عدّة.

-لم يكن لابن تومرت في التغيير منهج واحد بقواعد مطّردة.

-لا ننكر وقوع بعض الأخطاء من المرابطين، لكن المبالغة والتهويل - ضد كل ما هو مرابطي- صفتان لازمتا منهج التغيير عند ابن تومرت، وتبعته في هذه الصفتين المصادر الموحدية وكثير من المستشرقين ومن قلّدهم.

-سفك الدماء صفة لازمة لابن تومرت في التغيير.

قائمة المراجع:

1) القرآن الكريم.

2) ابن تيمية (ت 728هـ) - الفتاوى الكبرى- دار الكتب العلمية- لبنان- ط 1- 1408هـ/1987م.

3) ابن تيمية (ت 728هـ) - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية- تح: مجموعة- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- ط 1- 1426هـ.

4) ابن تيمية (ت 728هـ) - درء تعارض العقل والنقل- تح: محمد رشاد سالم- جامعة الإمام محمد بن سعود- السعودية- ط 2- 1411هـ/1991م.

5) ابن تيمية (ت 728هـ) - مجموع الفتاوى- تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- 1425هـ/2004م.

6) ابن تيمية (ت 728هـ) - منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية- تح: محمد رشاد سالم- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض- ط 1- 1406هـ/1986م.

7) ابن أبي زرع الفاسي- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور- الرباط- 1972.

8) ابن الأثير الجزري (ت 630هـ) - الكامل في التاريخ- تح: عمر عبد السلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- ط 1- 1417هـ/1997م.

9) ابن الدواداري- كنز الدرر وجامع الغرر- تح: صلاح الدين المنجد- عيسى البابي الحلبي- القاهرة- 1380هـ/1961م.

10)ابن العماد الحنبلي (ت 1089) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب- تح: محمود الأرناؤوط- دار ابن كثير- دمشق- ط 1- 1406هـ/1986م.

11)ابن القطان المراكشي- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- تح: محمود علي مكي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط 1- 1990.

12) ابن القلانسي (ت 555هـ) - تاريخ دمشق- تح: سهيل زكار- دار حسان للطباعة والنشر- دمشق- ط 1- 1403هـ/1983م.

13)ابن تومرت (ت 524هـ) - أعز ما يطلب- تح: عبد الغني أبو العزم- مؤسسة الغني للنشر- الرباط- 1997.

14)ابن خلدون (ت 808هـ) - العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- تح: خليل شحادة- دار الفكر- بيروت- ط 1- 1401هـ/1981م.

15)ابن خلكان (ت 681هـ) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تح: إحسان عباس- دار صادر- بيروت- ط 1- 1994.

16)ابن رشيد السبتي (ت 721هـ) - رحلة ابن رشيد المسمّاة ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطَيبة- تح: محمد الحبيب ابن الخوجة- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط 1- 1408هـ/1988م.

17)ابن سعيد المغربي (ت 685هـ) - الجغرافيا- تح إسماعيل العربي- المكتب التجاري للطباعة- بيروت- ط 1- 1970.

18)ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) - المنار المنيف في الصحيح والضعيف- تح: عبد الفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب- ط 1- 1390هـ/1970م.

19)ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت 774) - البداية والنهاية- تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي- دار هجر- مصر- ط 1- 1418هـ/1997م.

20) أبو داود السجستاني (ت 275هـ) - سنن أبي داود- تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي- دار الرسالة العالمية- لبنان- ط 1- 1430هـ/2009م.

21) أبو عبيد البكري (ت 487هـ) - المسالك والممالك- تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1992.

22) أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (ت 316هـ) - المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم- تح: مجموعة- الجامعة الإسلامية- السعودية- ط 1- 1435هـ/2014م.

23) أحمد بن حنبل (ت 241هـ) - مسند الإمام أحمد بن حنبل- تح: أحمد شاكر- دار الحديث- القاهرة- ط 1- 1416هـ/1995م.

24) أحمد بن حنبل (ت 241هـ) - مسند الإمام أحمد بن حنبل- تح: مجموعة بإشراف عبد الله التركي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط 1- 1421هـ/2001م.

25) الإدريسي (ت 560هـ) - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- عالم الكتب- بيروت- ط 1- 1409.

26) أمبروسيو هويثي ميراندا- التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية- تر: عبد الواحد أكمير- مطبعة النجاح الجديدة- المغرب- ط 1- 2004.

27) البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6) - أخبار المهدي ابن تومرت- تح: عبد الوهاب بن منصور- دار المنصور- الرباط- 1971.

28) البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت ق 6) - المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب- تح: عبد الوهاب بن منصور- دار المنصور- الرباط- 1971.

29) حسن أحمد محمود- قيام دولة المرابطين- دار الفكر العربي- القاهرة.

30) الحميري (ت 900هـ) - الروض المعطار في خبر الأقطار- تح: إحسان عباس- دار السراج- بيروت- ط 2- 1980.

31)الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ) - العبر في خبر من غبر- تح: محمد السعيد زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت.

32) الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ) - المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال- تح: محب الدين الخطيب- د ب.

33)الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ) - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام- تح: بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط 1- 1424هـ/2003م.

34)الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ) - سير أعلام النبلاء- تح: مجموعة- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط 3- 1405هـ/1985م.

35)رينهارت دوزي (ت 1300هـ) - تكملة المعاجم العربية- تر: محمد سليم النعيمي- وزارة الثقافة والإعلام- العراق- ط 1- من 1979-2000.

36) الزركشي محمد بن إبراهيم (ت ق 9) - تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية- تح: محمد ماضور- المكتبة العتيقة- تونس- ط 2- 1966.

37)سبط ابن الجوزي (ت 654هـ) - مرآة الزمان في تواريخ الأعيان- تح: مجموعة- دار الرسالة العالمية- دمشق- ط 1- 1434هـ/2013م.

38) الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790هـ) - الإعتصام- تح: مجموعة- دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية- ط 1- 1429هـ/2008م.

39)شوقي ضيف- تاريخ الأدب العربي- دار المعارف- مصر- ط 1- 1995.

40) عبد الله بن سليمان الغفيلي- أشراط الساعة- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية السعودية- ط 1- 1422هـ.

41)عبد المجيد النجار- المهدي ابن تومرت: حياته وآثاره- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط 1- 1403هـ/1983م.

42) عبد الواحد المراكشي (ت 647هـ) - المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين- تح: صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- بيروت- ط 1- 1426هـ/2006م.

43)عبد الوهاب بن علي الثعلبي البغدادي المالكي (ت 422هـ) - عيون المسائل- تح: علي محمَّد إبراهيم بورويبة- دار ابن حزم- بيروت- ط 1- 1430هـ/2009م.

44) كاتب مراكشي (ت ق 6) - الاستبصار في عجائب الأمصار- دار الشؤون الثقافية- بغداد- 1986.

45)لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) - رقم الحلل في نظم الدول- المطبعة العمومية- تونس- 1316هـ.

46) مبارك الميلي (ت 1364هـ) - تاريخ الجزائر في القديم والحديث- تق: محمد الميلي- المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر- الجزائر- 1406هـ/1986م.

47)مجهول- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية- تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة- دار الرشاد الحديثة- المغرب- ط 1- 1399هـ/1979م.

48) محمد عبد الله عنان (ت 1406هـ) - دولة الإسلام في الأندلس- مكتبة الخانجي- القاهرة- ط 2- 1411هـ/1990م.

49) الناصري السلاوي (ت 1315هـ) - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري- دار الكتاب- الدار البيضاء- 1954.

50) النويري (ت 733هـ) - نهاية الأرب في فنون الأدب- دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة- ط 1- 1423هـ.

51)ياقوت الحموي (ت 626هـ) - معجم البلدان- دار صادر- بيروت- ط 2- 1995.